

البلاغة التراثية واللسانيات التداولية: نحو مقارنة تأصيلية معرفية

Rhetoric Heritage and Pragmatics: Towards an Original Cognitive Approach.

الباحث: عزيز أوسو

المدرسة العليا للأساتذة - الرباط (المغرب)

Azizoussou17@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/12/09

تاريخ الإرسال: 2020/08/22

ملخص:

يعتبر الدرس البلاغي العربي القديم من أهم المشارب المعرفية في الموروث الثقافي العربي وإذا كانت البلاغة تدرس اللغة كوسيلة للتخاطب وتحصيل الفهم والإفهام، فإننا نرى بأنّ اللسانيات التداولية Linguistique Pragmatique هي الأخرى تدرس اللغة في سياق التخاطب، ولذلك عُرِّفَتْ بأنها علم يهتم بدراسة اللغة في الاستعمال؛ أي أنها لا تدرس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها، بل تدرس الاستعمال اللغوي في سياق تخاطبي محدد. ومن هذا المنطلق، يتضح أنّ ثمة اتفاق بين الدرس البلاغي والدرس التداولي في موضوع الدراسة بحيث يتحصل أنه إذا كانت البلاغة تتخذ من علم البيان والمعاني والبديع آليات إجرائية لمقاربة اللغة في سياق التخاطب، فإنّ اللسانيات التداولية اتخذت من نظرية الأفعال اللغوية والاستلزام التخاطبي ومتضمنات القول بنية مفاهيمية إجرائية لدراسة الاستعمال اللغوي. ولعلّ هذا ما يوجه البحث نحو التفكير في التداخل المعرفي الحاصل بين المفاهيم البلاغية والتداولية، وكذا الآليات الإجرائية التي يعتمد عليها كلّ حقل معرفي على حدة في دراسة اللغة داخل مقام التواصل والتخاطب.

الكلمات المفتاحية: البلاغة القديمة، اللسانيات، اللغة، المقام، التأصيل المعرفي.

Abstract:

The ancient Arabic rhetorical knowledge is considered one of the most important cognitive fields in cultural heritage. While discourse analysis studies language as a communication tool to achieve understandability, pragmatics studies language in context of discourse. Therefore, it was defined as a science concerned with the study of language in use. That is, it does not study the language for itself and for its own sake, but rather the linguistic use in a specific communicative context. From this standpoint, it becomes clear that there is an agreement between the rhetorical lesson and the pragmatic lesson in the subject of the study. That is to say, if the rhetoric lesson takes from the science of rhetoric, meanings, and ingenuity procedural mechanisms to approach language in the context of discourse, then pragmatics takes from the theory of action linguistics and communicative imperative and its implications to study language use. It seems that studying cognitive interference is worth searching especially between rhetorical and pragmatic concepts and the procedural mechanisms separately adopted by each field of study while dealing with the language within the denominator of communication and discourse.

Keywords: ancient rhetoric, linguistics, language, context, and epistemology.

مقدمة:

يطرح البحث في الموروث اللغوي العربي جملة من الأسئلة المتعلقة بالدرس اللساني الحديث. وما دام أنّ اللغة تعدّ بيت الكون وكيونته، فإنّ هذا ما يجعل اللغة المدخل الرئيس للحفر في جذور التراث اللغوي. وبناء عليه، تأسس هذا البحث من أجل تسليط الضوء على الأصول المعرفية بين البلاغة العربية التراثية واللسانيات التداولية الغربية، وذلك من خلال التعريف بكل من البلاغة والتداولية، وعقد مقارنة بين المفهوم الذي أُعطي لكل واحد منها، وأيضاً إبراز التداخل الحاصل بين البنية المفاهيمية الإجرائية للبلاغة والتداولية في إطار مقارنتهما للغة في سياق التخاطب. هذا بالإضافة إلى البحث عن الأسس والمبادئ التداولية في المتن البلاغي التراثي.

1. حدّ اللسانيات التداولية والبلاغة التراثية.

أ- حدّ وحدود التداولية أوالتداوليات.

إنّ المتمعن في سيرورة الدرس اللساني الحديث سيتبدى له بأنّ هذا الدرس تفرع إلى اتجاهين كبيرين مختلفين خلال القرن العشرين، بحيث "أضحت شروط الاستعمال عنصراً مهماً في الدرس اللغوي الحديث، وتعدّ ربما الفاصل الحاسم في تقسيم البحث اللغوي في اللسانيات الغربية إلى بحث يهتم بالمعنى الشكلي الصوري الذي تبنته البنيوية، وبحث يهتم بالمنحى الوظيفي الذي تبنته التداولية"⁽¹⁾. ويبدو أن هذا الاتجاه الأخير (الاتجاه التداولي) كرس مقارنة جديدة للغة بحكم انفتاحه على عدة حقول معرفية متباينة، ولعل هذا ما أكده فرديناند دوسوسير بقوله "إن نشاط المتكلم ينبغي أن يقوم بدراسته عدد من العلوم وإن لم يكن لها مكان في علم اللغة إلاّ بقدر علاقته به"⁽²⁾.

إنّ ما يمكن أن نسجله حول فكرة "من اللسانيات إلى اللسانيات التداولية" هو أنّ هذه الأخيرة بفعل تداخلها مع باقي العلوم المعرفية، استطاعت أن تتجاوز البنية المفاهيمية التي جاءت بها اللسانيات البنيوية، بل اعتبرتها مفاهيم بنيوية تقليدية، وراحت تهتم بالإنجاز اللغوي المجسد في التواصل والتخاطب، إيماناً منها بأنّ اللغة ظاهرة تواصلية تبليغية، ويمكن أن تبتعد عن التصور الصوري المغلق ذي إجراءات بنيوية خالصة، إلى التصور الاستعمالي التداولي الذي هو جوهر اللغة الإنسانية. وعلى هذا الأساس، يمكن القول "إن العلم الذي اتخذ اللغة موضوعاً له . أعني اللسانيات البنيوية خصوصاً . لم يستوعب كل المسائل المتعلقة باللغة، باعتبار هذه الأخيرة هي الوسيط الأكبر بين الإنسان والعالم، ومن هنا تخلى عن جزء هام من مهامه بذلك التضييق المفاهيمي الذي اتخذته شعاراً اللسانيات غير التداولية عموماً، وهي تراهن على أن "موضوع اللسانيات الحقيقي والوحيد هو دراسة اللسان في ذاته ومن أجل ذاته"، وكانت الترجمة العملية لهذه العبارة السوسيرية . في كثير من ساحات التنظير، وفي الممارسات . أن ساد تصور شكلي لماهية اللغة والدراسات اللغوية"⁽³⁾.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى التأكيد على أنّ اللسانيات التداولية متحت أغلب مفاهيمها الإجرائية من صلب حقول معرفية متباينة وخاصة "الفلسفة التحليلية" المتمثلة في فلسفة اللغة العادية التي تشترك معها في بعض الأسس العلمية نظرية كانت أو إجرائية. بحيث أنه "ما كان لدرس معرفي غزير كالدرس التداولي المعاصر مصدر واحد انبثق منه ولكن تنوعت مصادر استمداده؛ إذ كان لكل مفهوم من مفاهيمه الكبرى حقل معرفي يمتح منه مادته العلمية وتصوراتها عن اللغة والتواصل اللغوي؛ "فالأفعال الكلامية" مثلاً، مفهوم تداولي منبثق من مناخ فلسفي عام هو "الفلسفة التحليلية" بما احتوته من مناخ وتيارات وقضايا، وهو أول مفهوم تداولي انبثق إلى الوجود، وكذا مفهوم "نظرية التخاطب" الذي انبثق من الفلسفة الحديثة، ومن فلسفة بول غرايس Paul Grice تحديدًا، وأما "نظرية الملاءمة" فقد ولدت من رحم "علم النفس المعرفي"، أو من "نظرية القوالب" على التحديد وهكذا...⁽⁴⁾.

ويدفع التساؤل عن حدّ التداوليات إلى الإقرار بأنّ تقديم تعريف جامع مانع لها ليس أمراً سهلاً، ذلك أنّ تنوع خلفياتها الإستمولوجية أدى حتماً إلى تعدد تعريفاتها واختلافها إذا كان الباحثون كلّ واحد اصطلاح عليها من زاوية اشتغاله، فإنهم يُجمعون على مَسَلمة مفادها أن التداوليات علم يدرس الاستعمال اللغوي⁽⁵⁾. وإذا تساءلنا عن المعنى الاصطلاحي للسانيات التداولية، فإننا نجد يتداخل ومستويات الدرس اللساني، كما أنه يوظف كل ما توصلت إليه باقي مستويات هذا الدرس فيما هو خارج لغوي. ذلك أن الدراسات اللغوية توزعت "في القرن العشرين بين تركيبية ودلالية وتداولية فإذا كان التركيب . syntaxe . يهتم بدراسة العلاقات بين العلامات، كلمات أو جمل أو متتاليات جمالية قصد تحديد القواعد التي تحكم نظام هذه العلاقات وكانت الدلالات sémantique تعالج علاقات هذه العلامات بحالات الأشياء في اهتمامها بالمعنى في علاقته بالمرجع (...) فإنّ التداوليات ستمثل الضرورة التي تسمح بتوجيه وضبط استعمال هذه العلامات في المقام⁽⁶⁾. ومنه، يتّضح بأنّ التداوليات تبدأ مقاربتها اللغوية من حيث انتهى المستوى الدلالي والتركيب. ويبدو أن "مصطلح التداولية في أصله الأجنبي Pragmatique (...)

يعود إلى الكلمة اللاتينية Pragmaticus المبنية على الجذر Pragma، ويعني العمل أو الفعل Action⁽⁷⁾ ويشير فيليب بلانشيه إلى أنّ التداولية تُعرّف عموماً بكونها "مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية (...). وهي كذلك الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعبيرات الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية"⁽⁸⁾. وتعرف أيضاً بكونها "دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت"⁽⁹⁾. وإلى جانب هذا المعنى اصطلاح الفيلسوف شارلز موريس على التداولية في سياق حديثه عن مختلف التخصصات التي تعالج اللغة بقوله: "إنّ التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"⁽¹⁰⁾.

يتحصل إذن من خلال هذه التعاريف أنّ مفهوم التداولية يحمل في طياته ثلة من المفاهيم المركزية التي تُعرّف وتحدد كُنْهه نحو: (اللسانية، استعمال اللغة، السياق والمقام الخطاب والتواصل، مستعملي العلامات). وإنّ التخريس في هذه المفاهيم ومقارنتها من زاوية المعرفة اللسانية التخاطبية، يبيّن بأنّ التداولية حقل معرفي يندرج ضمن الدرس اللساني، ويتخذ اللغة في بعدها الاستعمالي مراعيًا في ذلك سياق ومقام الاستعمال بقصد تبيان ما يُضمّره الاستعمال اللغوي من معان ودلالات. وعليه، أمكننا القول إنّ التداولية لم تعد ترى في اللغة ذلك الكيان البنيوي، بل إنها وجّهت بوصلتها صوب اللغة وناطقها مراعية في ذلك أحوالهم ومقاصدهم. ومنه، يمكن الإقرار على أنّ الدرس التداولي "تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم كما يعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"⁽¹¹⁾. فهي إذن "لسانية الحوار أو الملكة التبليغية"⁽¹²⁾.

يستشف من هذا القول، أنّ اللسانيات التداولية ترتبط أساساً بالتخاطب والتلفظ و"على الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الدارسين حول التداولية، وتساوّلاتهم عن القيمة العلمية للبحوث التداولية وتشكيكهم في جدواها فإن معظمهم يقر بأن قضية التداولية هي "إيجاد" القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية

للتواصل اللغوي (...) وقد نقول في تعريفها: بأنها نسقٌ معرفي استدلاي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية⁽¹³⁾، على اعتبار أن "التلفظ هو النشاط الرئيس الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي، بوصفه نقطة التحول بالممارسة الفعلية لها، مما يبلور عناصر السياق في الخطاب: من مرسل ومرسل إليه كما أنه يتحدد به القصد والهدف"⁽¹⁴⁾. وبهذا، يكون التلفظ يرتبط بالتداولية ارتباطاً وثيقاً فهو فعل لغوي يقوم به أطراف التخاطب من أجل خلق حوار تواصلي تؤطره فترة زمنية ومقام تواصلي محددين. وعليه، يكون تحليل اللغة وفق الدرس التداولي هو ربط الملفوظات بسياقات إنجازها.

يستخلص إذن أنّ التداولية أعطت للغة تصوراً جديداً، حيث أعادت الاعتبار للوظيفة التواصلية التي أُهمّكت في الدراسات اللسانية السابقة عليها. ذلك أنّ اللسانيات التداولية "انطلقت (...) من فكرة جريان الكلام على الألسن، أي من التلفظ ذاته كعملية تخص الفرد، تبرز ممارستها للغة إلى القصد من إيصال الرسالة أو الخطاب إلى الطرف الآخر والتأثير فيه ضمن ما يدعى بعنصر التفاعلية اللسانية *L'interaction linguistique* لأن المتكلم في كلّ عملية تواصلية (منطوقة بالخصوص) يحتاج إلى مستمع يوظف كلّ الآليات الذهنية لإدراك العلامة اللغوية والعلامة غير اللغوية، والتوصّل إلى استيعاب ما تتضمنه من دلالات، وبهذا تكون ظاهرة التواصل البشري ملازمة للإنسان، وفي الوقت ذاته يقوم بتأويل المحاور الدلالية والنحوية انطلاقاً مما تتضمنه قوانين الحال والسياق من شروط"⁽¹⁵⁾. وبهذا تكون التداولية تركز بالأساس على الاستعمال الفعلي للغة من كلّ جوانبه، الشيء الذي يحتم على المخاطب امتلاك جملة من المعارف حول اللغة، أو ما اصطلح عليه بـ "الكفاءة اللسانية". وبهذا كله، تكون اللسانيات التداولية فتحت أمام الدرس اللساني الحديث مجالاً آخر للبحث في اللغة، الشيء الذي جعلها لم تعد توصف بأنها سلة لمهمات اللسانيات كما دأبت بعض الدراسات إلى تسميتها.

ب- حدّ البلاغة التراثية:

يستلزم الحديث عن مفهوم البلاغة الإشارة إلى أصولها وامتداداتها، إذ تذهب الدراسات البلاغية المعاصرة إلى أنّ نشأة البلاغة ارتبطت بأربعة مجالات معرفية يمكن حصرها في: الشعر ونقده، القرآن وإعجازه، اللغة وتقييدها، الثقافة الأجنبية وتأثيرها⁽¹⁶⁾. أمّا بخصوص حدّها الاصطلاحي، فإنه من الصعب أن نقف عند تعريف موحد؛ بحيث أن تعريف النقاد والبلاغيين كانت تصاغ بناء على خلفيتهم المذهبية والسياسية. فقد جاء عند صاحب "الصناعتين" أنّ ابن المقفع فسّر البلاغة تفسيراً لم يضاهاه فيه أحد، إذ قال: "البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة. منها ما يكون في السكوت. ومنها ما يكون في الاستماع. ومنها ما يكون شعراً. ومنها ما يكون خطباً"⁽¹⁷⁾. وهناك من جعلها في تطابق المعنى للفظه وقوته، حيث "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"⁽¹⁸⁾. وورد كذلك عند صاحب العمدة، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: "فيم الجمال؟ فقال: "في اللسان" يريد البيان (...). وسئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يفهم وكثير لا يسأم. وقال آخر: البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. وسئل آخر فقال: معان كثيرة في ألفاظ قليلة. وقيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال إصابة المعنى وحسن الإيجاز. وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهة. وقال خلف الأحمر: البلاغة لمحة دالة. وقال الخليل بن أحمد: البلاغة كلمة تكشف عن البقية"⁽¹⁹⁾.

يستشف إذن من كل هاتيك التعاريف أنّ البلاغة تعبر عن قوة المعنى الذي يُعبّر عليه بألفاظ قليلة (الإيجاز)، فهي تخص الجانب الفني في صناعة الكلام الذي يتجاوز المؤلف والمتواضع عليه إلى ما هو انزياحي إبداعى. وبهذا المعنى فهي لا تهتم بالمعنى التقريبي، وإنما تجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فتومئ به إليه، وتجعله دالاً عليه شريطة أن يطابق الكلام مقتضى الحال. ويقال أنّها سميت بالبلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. ومن هذا المنطلق فهي تراعي أطراف التواصل وأحوالهم والمقام الذي يتواصلون فيه

على اعتبار أن وظيفتها الأساس هي الوظيفة التأثيرية التي جعلها الجاحظ تمتد في الوظيفتين الإخبارية والحجاجية. ومن هذا المنطلق، يتضح أن البلاغة تدرس اللغة في بعدها الاستعمالي الجمالي، مراعية في ذلك مدى مطابقة المقال لمقتضى الحال. وفي هذا يقول عبد الرحمان بن خلدون: "فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن (...) الدلالات التي هي للهيئات والأحوال والمقامات"⁽²⁰⁾.

وإن ما وجب التنبيه إليه في سياق حديثنا عن أسس البلاغة عدم إغفال الركائز الأساسية التي تقوم عليها وهي الكلام والمقام ومستعملي الكلام، بحيث أن عناصر البلاغة "لفظ ومعنى، وتأليف للألفاظ بينها قوة وتأثيراً وحسناً، ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال السامعين والنزعة النفسية التي تملكهم وتسيطر على نفوسهم. فربّ كلمة حسنت في موطن ثم كانت مستكرهة في غيره. ورب كلام كان في نفسه حسناً خلافاً حتى إذا جاء في غير مكانه وسقط في غير مسقطه خرج عن حدّ البلاغة"⁽²¹⁾. علاوة على ذلك، تتأسس البلاغة على اعتماد اللفظ المناسب في المعنى المناسب، داخل سياق مناسب. كما أنها، تنزاح عن التعبير التقريري إلى التعبير الانزياحي الذي يجعل المعنى الواحد يُؤدّى بطرق شتى ويحتمل دلالات متعددة مراعية في ذلك غاية تزيينه وتنميته من أجل أن يكون له وقع في القلوب والعقول. وقد أقرّ هذا ابن الأثير بقوله: "من له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ في الأذن نغمة لذيدة كنغمة أوتار وصوتاً منكراً كصوت حمار، وأنّ لها في الفم أيضاً حلاوة العسل ومرارة الخنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم"⁽²²⁾. وبهذا التحديد، تكون البلاغة مقاربة للاستعمال اللغوي من زاوية بلاغية فنية، تراعي أطراف التخاطب وأحوالهم ولغتهم ومقام تخاطبهم. وعليه، فإنّ وظيفتها يمكن حصرها في "وصف الطّرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكّنها في التعبير عن الغرض تعبيراً يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلم أو إقناعه بما نقول أو إشراكه في ما نحسّ به، وغايتها مد المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد"⁽²³⁾.

2. التداوليات امتداد للبلاغة في المفهوم والجهاز المفاهيمي

اتضح من خلال تعريفنا للتداولية والبلاغة أنهما وإن تباينا من حيث المرجعيات المؤسسة لكل منهما، فإنهما ائتلافا وتطابقا من جهة المفهوم اللغوي والاصطلاحي، إذ وجدنا عند ابن منظور في تعريفه اللغوي السابق للتداولية أنها مأخوذة من التداول الذي يعني التناقل. والتداول والتناقل كلاهما يدلان على معنى التخاطب الذي يقتضي عادة طرفين، مما يعني أن التداولية لم تبتعد عن مجال الدراسات اللغوية، وإنما غيّرت الدراسة من داخلية إلى خارجية. والشيء نفسه بالنسبة للبلاغة التي أخذ جذرها اللغوي معنى الإيصال والإبلاغ⁽²⁴⁾، وهذان المعنيان يقتضيان طرفان على الأقل؛ لأنه لا يمكن أن يتم الإبلاغ إلا إذا وُجد مُرسِل البلاغ ومستقبله. والملاحظة نفسها يمكن قولها بالنسبة للتعريف الاصطلاحي لكل من التداولية⁽²⁵⁾ والبلاغة، ذلك أنهما اشتركا في موضوع الدراسة اللغوية. وإذا أردنا أن نعقد مقارنة بين التعريف الاصطلاحي الذي قدمته فرانسواز أرمينكو للتداولية والتعريف الذي يمكن أن نستشفه من قول البلاغيين، فإننا لن نجد فرقا كبيرا بين التعريفين. تقول أرمينكو: "التداولية دراسة الأفعال اللسانية والسياقات التي تتم فيها"⁽²⁶⁾. يقر البلاغيون بأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

يتحصل من قول فرانسواز أرمينكو أن التداولية هي دراسة للأفعال، وكذلك السياقات التي وأنجزت فيها تلك الأفعال؛ مما يعني أنها لا تهتم ببنية الفعل من الناحية الصوتية أو المعجمية أو التركيبية، وإنما تعطي الأهمية للمعنى الذي يمكن أن يأخذه الفعل داخل السياق التخاطبي، أي أنها تدرس القوة الإنجازية التي يتوخاها المخاطب من وراء خطابه، وهذا يعني أن التداولية تهتم أساسا بدراسة علاقة اللغة بسياق التخاطب؛ أي أنها تحاول فهم مدلولات اللغة انطلاقاً من السياق الذي استعملت فيه، ومن ثمة عرّفها أرمينكو بأنها "دراسة خضوع القضايا للسياق"⁽²⁷⁾. أما فيما يخص تعريف البلاغة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"، فيكشف هذا التعريف أن البلاغة هي الأخرى لا تهتم

بالكلام لحظة تشكّله من الناحية الصوتية والمعجمية، وإنّما تراعي المعنى التداولي الذي يكتسبه في السياق. وبهذا، تكون هي الأخرى تدرس اللغة من المنطلق التخاطبي التداولي. والمقصود بـ "مقتضى الحال" في القول أعلاه هو السياق أو المقام الذي لزم الكلام أن يطابقه من أجل أن يكتسي دلالة واحدة؛ على اعتبار أنّ الكلام الواحد يمكن أن يؤدي دلالات مختلفة تتماشى والسياق الذي وُظف فيه.

بناء على تلك المعطيات أمكننا القول إنّ التداولية والبلاغة العربية اشتركتا في مراعاتهما لأطراف التخاطب وأحوالهم أثناء تخاطبهم، إذ ركزتا بشكل مباشر على الكيفية التي يوصل بها المتكلم قصده لمخاطبه، وأيضاً الطريقة التي يفهم بها المخاطب مقصود مخاطبه؛ على اعتبار أنّ أطراف التخاطب هم الذين يتحكمون في توجيه المعنى المقصود وليس الكلمات نفسها. وعلى هذا الأساس، سمح لنا القول إنّ طرفي التخاطب احتلا مكانة مهمة من لدن المنظرين للبلاغة والتداولية. وعليه، تم تعريف التداولية بأنها "فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم (...) أو هو دراسة معنى المتكلم" (28).

وفي سياق الحديث عن أطراف التخاطب في الدرس التداولي والبلاغي، نوّد الإشارة إلى أنه إذا كانت التداولية استقت مادتها من علم النفس المعرفي كرافد معرفي، ومنه نظرت إلى الجانب السيكلوجي لأطراف التخاطب، فإنّ البلاغة هي الأخرى لم تغفل ذلك الجانب، بل قارنته ولو بطريقة غير مباشرة في سياق الحديث عن المعاني وكيفية ترتيبها في النفس ومراعاة مقتضى الحال في التخاطب. يقول محمد العمري مؤكداً هذا الزعم إن البلاغيين "العرب وإن لم يهتموا كثيراً بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال، ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين" (29). والمعنى نفسه نجده عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" حيث يقول: "وإن كانوا لم يستعملوا النظم في المعاني قد استعملوا فيها ما هو بمعناه ونظيره، وذلك قولهم: إنه يرتب المعاني في نفسه وينزلها ويبيّن بعضها على

البعض"⁽³⁰⁾. يستخلص من قول عبد القاهر الجرجاني أنّ البلاغيين أعطوا التفاتة كبيرة لكيفية جريان المعاني في الأنفس ونظمها، ذلك أنهم كانوا يراهنون على ترتيب المعاني في النفس قبل أن يتم التلفظ بها، بحيث إنك "إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"⁽³¹⁾. منه، يتحصل أنّ التداولية والبلاغة العربية يتقطعان في جملة من المبادئ أولها «السياق» الذي به أطلق بعض الدارسين والباحثين على التداولية مصطلح "السياقية" أو "المقامية" نظراً لكونها تربط اللغة بالسياق"⁽³²⁾ شأنها شأن البلاغة.

وإن التداخل الحاصل بين التداولية والبلاغة العربية من جهة التعريف اللغوي والاصطلاحي، وتداخلهما أيضاً في بعض الأسس البانية لكل منهما هو ما يدفعنا إلى الإقرار بأنّ المفاهيم التداولية وُجِدَ معناها في المباحث البلاغية. فإذا كان مفهوم "متضمنات القول"⁽³³⁾ في اللسانيات التداولية يتعلق برصد المعاني الضمنية والخفية في الخطاب التواصلية، وذلك من خلال "الافتراض المسبق" الذي يحيل على ما هو معروف ومتفق عليه في أي عملية تخاطبية. وأيضاً "الأقوال المضمرة" التي يمكن للخطاب أن يحتويها داخل سياق محدّد، فإن هذا المفهوم نجد محتواه في الدرس البلاغي خاصة في مبحث «الإيجاز» بحيث أنه إذا كانت "متضمنات القول" هي تلك المعاني التي يسكت عليها طرفي الخطاب لأنها معلومة ومعروفة بينهما، فإن "الإيجاز" هو الآخر يجري عليه هذا النحو بحيث أن الإيجاز في الكلام هو "جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح"⁽³⁴⁾، وهذه المعاني قد تكون معروفة لدى المتخاطبين وقد يكون المقام التخاطبي هو الذي يحددها، نظراً لكون البلاغة "تقتضي استخدام الإيجاز مع الذكي اعتماداً على سرعة فهمه وقدرته على استيعاب ما تحمله الألفاظ القليلة من المعاني الكثيرة، وكذلك الشأن بالنسبة لأسلوب الإطناب، فبلاغته تستلزم الإسهام بالشرح والإيضاح، إما طلباً لتمكين المخاطب من الفهم إن كان غيبياً، وإما لتنزيله منزلة قصار العقود"⁽³⁵⁾. فإذا أخذنا مثلاً عبارة: "كل تلاميذ

فاطمة نجحوا" دون إثبات دلالاتها بشكل صريح، فإنّ العبارة تحمل معنى ضمني مسبق بين المتخاطبين، وهو أنّ فاطمة تمتحن مهنة التدريس. وفي تقديرنا يمكن أن نقول إن هاته العبارة وإن كان فيها افتراض مسبق، بمفهوم تداولي، بين المتخاطبين تمثّل في كون فاطمة مدرّسة ففي الآن ذاته فيها إيجاز. وما يوضح ذلك هو أنه مادام أنّ طرفي الخطاب غايتهما هي تحقيق الفهم والإفهام، فإن المتكلم في هذه الحالة وظّف الإيجاز بدل الإطناب لأنه لم يقل: "كل تلاميذ الأستاذة فاطمة نجحوا". وبهذا تكون الافتراضات المسبقة بين أطراف التخاطب تنبني على الإيجاز والإطناب؛ فالتكلم عندما يدرك بأن مخاطبه قادر على استيعاب أسلوب الإيجاز، أي أنه على بينة بالمسلمات التي تجمعها والتكلم، فإنه يوظف الإيجاز، وإذا أدرك أنه لن يحصل الفهم بأسلوب الإيجاز وظف أسلوب الإطناب. وبذلك يكون قد عدل عن الافتراض المسبق الذي يجمعه ومخاطبه.

بناء على هذا التوضيح، يبدو أن ثمة ترابط وتداخل وثيق بين ما اصطلاح عليه البلاغيون بالإيجاز وما اصطلاح عليه التداوليون بمتضمنات القول، بحيث أنّ البلاغيين في إطار تنظيرهم لمباحث البلاغة لم يقصروا نظرهم في الوقوف على المعنى الواحد للعبارة، وإنما راعوا المعاني المتعددة الضمنية التي يمكن أن يؤديها اللفظ الواحد أو العبارة في السياق التخاطبي، وكل هذا يعني، في نظرنا، أنهم نظروا إلى اللغة في استعمالها وتوظيفها كأداة للتخاطب. ومادام أنّ الاستعمال اللغوي قد يختلف من مخاطب إلى آخر، فإنّ البلاغيين جعلوا الكلام درجات يتغير بتغير المقام التخاطبي وأطراف التخاطب. ولعل هذا المبدأ أقرته الدراسات التي اهتمت بالدرس التداولي، إذ أكدت على أنّ "أوجز تعريف للتداولية وأقرب به إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction لأنه يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئاً متأسلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول negotiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، اجتماعي، لغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما"⁽³⁶⁾.

أما بخصوص مفهوم الاستلزام التخاطبي *L'implication conversationnelle* عند بول غرايس فإذا "كانت نقطة البدء عند غرايس هي أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقولون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همّه إيضاح الاختلاف بين ما يقال (...)، وما يقصد (...)، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية (...) وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتماداً على أن السامع قادر على أن يقيم معبراً بين ما يحمله القول من معنى صريح (...) وما يحمله من معنى متضمن (...) فنشأت عنده فكرة الاستلزام" (37)، فإنّ البلاغيين بدورهم لم يغفلوا هذا الجانب من الاستعمال اللغوي وخاصة عند حديثهم عن مبحث "المجاز والاستعارة والكناية"؛ حيث جعلوا المجاز هو "استعمال اللفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي" (38). ويمكن تفسير هذا القول بأنّ اللفظ في المجاز يحمل معنى لغوياً خاصاً به؛ أي مدلولاً بتعبير فردناند دوسوسير، ويراد به معنى آخر عن طريق العدول عن المدلول اللغوي، وبذلك نجد فيه معنيين: ما يقال وما يُقصد حيث يكون المعنى الأول هو ما تعنيه قيمة اللفظ المباشرة، والمعنى الثاني هو ما يريد المتكلم إيصاله لمخاطبه من خلال ذلك اللفظ بطريقة غير مباشرة. والأمر نفسه يمكن أن نقوله عن الاستعارة التي تقوم على إطلاق عبارة لها معنى صريح ويقصد بها غير ذلك المعنى، بناءً على أن المخاطب قادر على أن يقيم علاقة دلالية ينتقل بها من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني المسكوت عنه أو الدلالة الاستعارية للعبارة. ومن أجل توضيح هذا نأخذ المثال التالي تمثيلاً لا حصراً. يقول المتنبي وهو يصف دخول رسول الرّوم على سيف الدولة يقول:

أَقْبَلَ يَمْشِي فِي الْبَسَاطِ فَمَا ذَرَى إِلَى الْبَحْرِ يَسْعَى أَمْ إِلَى الْبَدْرِ يَرْتَقِي

فموطن الشّاهد عندنا في هذا البيت هو «إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي» وفيه نلاحظ أنه تضمن معنى مصرحاً به هو تشبيه سيف الدولة بالبحر والبدر، ولعل هذا المعنى ليس هو مقصود المتنبي، وإنما قد قصد معنى مسكوت عنه وثرّك للمتلقّي (المخاطب) من أجل استقصائه؛ لأنّ المتنبي في هذه الحالة عارف بأن مستمعَه له القدرة على أن يُقيم

علاقة تنتقل به إلى المعنى المقصود وهو أن ممدوحه يتمتع بالجلود والعطاء والضياء والعظمة وهذا المعنى المسكوت عنه هو ما أطلق عليه بول غرايس بالمعنى المستلزم حوارياً، نظراً لكون الاستلزام الحوارية كما عرّفه الأستاذ العياشي أدراوي هو " ما يرمي إليه المتكلم بشكل غير مباشر، جاعلاً مستمعه يتجاوز المعنى الظاهر لكلامه إلى معنى آخر" (39). ويظهر كذلك حضور مفهوم الاستلزام الحوارية أو التخاطبي، باعتباره "المعنى التابع للدلالة الأصلية للعبارة" (40) في البلاغة العربية ضمن مبحث "الكناية"؛ نظراً لكون هذه الأخيرة يتم فيها إطلاق عبارة وإرادة معنى عبارة أخرى. ويمكن أن نوضح حضور مفهوم الاستلزام الحوارية في الكناية انطلاقاً من تعريف عبد القاهر الجرجاني لها إذ يقول: "الكناية (...) أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يحى إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: «هو طويل النجاد» يريدون طويل القامة «وكثير رماد القدر» يعنون كثير الضيوف، وفي المرأة: «نؤوم الضحى» والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى آخر من شأنه يردُّ فهُ في الوجود" (41).

يتبين إذن انطلاقاً من قول عبد القاهر الجرجاني أن البلاغيين لم يكونوا غافلين عن المعنى الذي يؤدّي بطريقة غير مباشرة، (التخاطب غير المباشر)، ويظهر هذا بشكل واضح بين القسّمات من خلال قول عبد القاهر أن المتكلم عندما يريد أن يُعبّر عن معنى أو يخاطب مخاطباً، فإنه لا يعبر عنه أو يخاطبه بالعبارة التقريرية الظاهرة، وإنما يستعمل العبارة التي تستلزمه وتدل عليه بطريقة ضمنية غير مباشرة، وهذا هو جوهر "الاستلزام التخاطبي" في الدرس التداولي. إلى جانب هذا، اهتم البلاغيون العرب بالاستعمال اللغوي الذي يؤسس للتخاطب المباشر، وذلك من خلال مبحثي "الخبر والإنشاء" في علم المعاني، وكذلك في مبحث "الحقيقة".

بقي لنا أن نقف عند أهم نظرية انبنت عليها التداولية بشكل رئيس، وهي التي اصطلح عليها بـ "نظرية الأفعال الكلامية" وبها عَنون أوستين كتابه (42). ونودّ الإقرار منذ

البدء على أنّ هذه النظرية حضرت بقوة في الدرس البلاغي التراثي وخاصة في علم المعاني إذ شكل منطق اشتغالها آليات اشتغال مبحثي الخبر والإنشاء في الدرس البلاغي. ونبدأ من حيث بدأ أوستين بحثه العلمي الذي قسّم جمل اللغات الطبيعية إلى قسمين: جمل وصفية وهي التي تقوم أساساً بوصف حدث أو حالة معينة ويحكمها معيار مقامي تجلّي في ثنائية "الصدق والكذب"؛ أي أنّها تكون صادقة إذا كان معناها يطابق الواقع الخارجي وكاذبة إذا كان عكس ذلك، والجمل الإنجازية وهي التي لا تصف الواقع، وإنما تتجاوزته إلى إنجاز أفعال في الواقع، ويُشترط فيها أن تكون مشتملة على فعل إنجازي (أمر، نهي، نداء استفهام...)، وأن يكون زمن الفعل هو زمن الحاضر، وأن يكون قائل الجملة المتكلم المفرد⁽⁴³⁾. فإذا أمعنا النظر في الدرس البلاغي فإن هذا التقسيم نلّفه عند البلاغيين وخاصة في تقسيمهم الكلام إلى "خبر وإنشاء"، حيث جعلوا الخبر يمثل الجمل الخبرية التي تماثل الوصفية عند أوستين وهي التي تحتل الصدق والكذب. وجعلوا الإنشاء يمثل الجمل الإنشائية التي تناظر الإنجازية عند أوستين وهي التي لا تحتل الصدق والكذب. ويمكن توضيح هذا الكلام بالمثال التالي قول قائل: "اسمح للفقراء"؛ يلاحظ أن هذه الجملة هي جملة إنجازية وإنشائية في الآن نفسه؛ لأنها أولاً لا تحتل الصدق أو الكذب، وثانياً كونها لا تصف شيئاً في الواقع الخارجي، بل تُحدث فيه فعلاً؛ على اعتبار أن فعل (اسمح) لن يتحقق إلا بعد التلفظ به، وبذلك يكون المتكلم أنجز وأنشأ فعلاً بكلامه لم يكن مُنجزاً في الواقع. وعلى هذا الأساس، أطلق عليها بالإنجازية في التداولية وبالإنشائية في البلاغة. أما قوله مثلاً: "تهطل الأمطار بقوة"؛ فيلاحظ أن هذه العبارة هي جملة وصفية بتعبير أوستين وخبرية بتعبير البلاغيين، وقد سميت كذلك لأنها أولاً تصف الواقع وتقدم خبراً، وبذلك فهي صادقة إذا كان المطر يهطل بقوة وكاذبة إذا كان عكس ذلك، وثانياً كون مضمونها سابق وموجود قبل التلفظ بها.

وفي إطار التأصيل لنظرية الأفعال الكلامية فإنه إذا كان أوستين قسّم الفعل اللغوي إلى "فعل قولي" يتم إطلاقه في جمل مفيدة وصحيحة نحوياً، و"فعل إنجازي" (الفعل المتضمن

في القول) وهو الذي يقوم به المتكلم أثناء تلفظه، وقد عُدَّ هذا النوع، باتفاق الباحثين والدارسين، جوهر النظرية ككل، وأيضاً "الفعل التأثيري" (الفعل الناتج عن القول) وهو الأثر الذي يُحدثه كلام المتكلم في مخاطبه. فإن هذا التقسيم المنهجي نجد له صدى بصيغ أخرى عند البلاغيين؛ إذ نجد فعل القول تمثل فيما اصطلح عليه بـ "الإنشاء غير الطلي" وهو الذي لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب؛ أي أنه عبارة عن جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة شأنه شأن فعل القول. ونجد كذلك الفعل الإنجازي والتأثيري تمثلاً في "الإنشاء الطلي" الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب في اعتقاد المتكلم وقت الطلب. والمطلوب ههنا هو الإنجاز الذي يتوخاه المتكلم من المخاطب، وأيضاً التأثير الذي يحدثه فيه بعد تلفظه بالفعل الطلي أو الإنجازي. فقوله مثلاً: قلّ من الضحيج. يتبين أن المتكلم استدعى من مخاطبه طلباً (فعلاً إنجازياً) غير حاصل وقت الطلب (التقليل من الضحيج). وبأمره هذا يكون قد أحدث فيه تأثيراً. وقد أجمع البلاغيون على أن هذا الإنشاء الطلي يؤدي بخمس صيغ (الأمر، النهي، الاستفهام، التمني، النداء). ويبدو أن هذه الصيغ نفسها هي التي أطلق عليها أوستين بالأفعال الإنجازية⁽⁴⁴⁾.

3- الأبعاد التداولية في المتن البلاغي التراثي.

إنّ مفهوم "الملاءمة" حظي في الدرس التداولي بأهمية كبيرة نظراً لكونه يتوافق والأسس الإجرائية التي انبنت عليها التداولية، وقد عُدَّ قاعدة أساسية أدرجها غرايس في "مبدأ التعاون" الذي وجب على المتخاطبين مراعاته إن راموا إنجاح العملية التخاطبية، وأيضاً كونه يميز بين الأغراض الكلامية ويجعل لكل غرض مقامه؛ حيث يكون مقام الشكر ليس هو مقام التعزية ومقام التهنة ليس هو مقام التوبيخ. ويبدو في تقديرنا أن مضمون هذا المفهوم التداولي نجده عند السكاكي (ت626هـ) في متن مفتاح علومه حيث يقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يبين مقام الشكاية، ومقام التهنة يبين مقام التعزية، ومقام المدح يبين مقام الذم، ومقام الترغيب يبين مقام الترهيب، ومقام الجدل في جميع ذلك يبين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على

الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغير مقام على الإنكار؛ جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام، فلكل كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانخطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال⁽⁴⁵⁾. ولعل هذه العبارة الأخيرة تؤكد أن معيار قبول الكلام من لدن المخاطب هو أن يناسب المقال المقام، وإذا خالف ذلك، حسب السكاكي، انخط كلام المتكلم ولم يفهم⁽⁴⁶⁾.

سبقت الإشارة إلى أنّ طرقي التخاطب لقياً اهتماماً كبيراً من لدن البلاغيين والتداوليين وفي تقديرنا بديهي أن يكون ذلك الاهتمام، لأنه لا يمكن أن نتصور العملية التخاطبية بدون طرقي التخاطب. وإن الذي يؤكد على أن الدرس البلاغي القديم اهتم بأطراف التخاطب هو إقرار أبو هلال العسكري بأن "اجتماع آلة البلاغة (...) متخير اللفظ. لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة. ولا الملوك بكلام السوق. ويكون في قواه التصرف في كل طبقة (...). ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم. والحمل عليهم على قدر منازلهم"⁽⁴⁷⁾.

وإذا كان بول غرايس وضع ضمن "مبدأ التعاون" بين المتخاطبين قاعدة "الكم" التي تنصّ على ضرورة مفادها أن تكون مبادرة المتكلم على قدر حاجة سامعه، من أجل ألاّ يكثر الكلام ويُسَاء فهمه، أو يقل ويغبي معناه. فإن مضمون هذه القاعدة أيضاً وردت عند ابن طباطبا العلوي أثناء حديثه عن الشعر وما ينبغي أن يكون عليه إذ يقول: "وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحها فيلائم بينها لتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسي السامع المعنى الذي يسوق القول إليه"⁽⁴⁸⁾.

أما إذا عدنا أدرجنا إلى مفهوم الاستلزام الحواري أو التخاطبي عند بول غرايس، الذي سعى من خلاله إلى وضع نحو كلي للعمليات التخاطبية، فيكفي من أجل إبراز حضوره في الدرس البلاغي التراثي أن نمنع النظر فيما ورد عند عبد القاهر الجرجاني في "دلائل

الإعجاز" حيث يقول: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده (...) وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل (...) أولا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماذ القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى: فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجهه ظاهره ثم يعقل السامع مع ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماذ القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها"⁽⁴⁹⁾. وإذا كنا قادرين على أن نقول بأن بول غرايس باستلزامه التخاطبي كان يقصد أن في العمليات التخاطبية ما يمكن أن نسميه بالمعنى ومعنى المعنى، فإن عبد القاهر الجرجاني كان على دراية بهذا المعطى حين قال: "وإذا قد عرفت هذه الجملة فما هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"⁽⁵⁰⁾.

بناء على ما سبق، يتحصل أن المتن البلاغي التراثي حضرت فيه الأسس والأبعاد التداولية، ذلك أنك إذا أخصت النظر في جل المصنفات البلاغية ستجد، بلا مرية، أن الناقد البلاغي ما كان ليسكت عن مفاهيم ذات بعد تداولي في إطار إرسائه للمبادئ البلاغية نحو (السياق، المقام، اللغة، الوظيفة، المنفعة، المعنى، الاستعمال، المعنى الظاهر المعنى الباطن، المتكلم، المخاطب، الإخبار، الفهم والإفهام... إلخ). وهذا ما يرجح بالكاد أن البلاغيين كانوا على بينة بالجانب الوظيفي البراغماتي الذي تؤديه اللغة. وعليه، نستطيع القول إن البلاغيين القدامى شأنهم شأن التداوليين في ربط اللغة بالجانب السوسولوجي والسيكولوجي اللذين يتدخلان في فهم وإدراك اللغة داخل السياق التخاطبي. وبذلك حُقّق لنا الإقرار على أن اللسانيات التداولية لقيت تربة خصبة في الموروث البلاغي العربي، بل يمكن التأكيد على أن الدرس التداولي اسم جديد للدرس البلاغي التراثي"⁽⁵¹⁾.

خاتمة:

تأسيسا على ما تقدم، يُستنتج أن الدرس البلاغي العربي القديم زخر بمجملته من المعطيات ذات البعد التداولي الصرف. بحيث توضح من خلال عقد مقارنة بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتداوليات والبلاغة أن حدّهما ارتبط بدراسة اللغة في مقام التخاطب. إضافة إلى التداخل الحاصل بين البنية المفاهيمية للتداوليات والبلاغة، وأيضا الحضور البارز لأسس ومقومات الدرس التداولي في المتن البلاغي. صحيح أن التداولية كعلم قائم الأركان لم يحضر بصورة مكتملة في الأبحاث البلاغية التراثية، لكن في الآن ذاته حبلت هاتيك الأبحاث بزد معرفي لا يمكن الاستهانة به. وعليه، يمكن أن نقر بأن التداولية كعلم لساني حديث حضر ممارسة وغاب الجانب التنظيري له في المشهد البلاغي؛ بمعنى أن البلاغيين تناولوه في مدارساتهم بشكل عرضي دون أن يقفوا عنده ويضعوا له اسمه وضوابطه، ويجعلونه علما مستقلا بذاته شأنه شأن باقي علوم اللسان العربي. وإن كان هذا كله يدل على شيء فإنما على كون الدرس البلاغي التراثي متقدم عن عصره، إذ استطاع في هذه الزاوية أن يساير حداثة الدرس اللساني الغربي بالرغم من أنه درس تراثي قديم.

الهوامش والإحالات

- (1) - التداوليات وتحليل الخطاب بحوث محكمة، تقدم وإشراف حافظ اسماعيلي علوي ومنتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2014، ص: 161.
- (2) - نقلا عن: هو الحاج ذهبية، نفسه، ص: 156.
- (3) - في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، مسعود صحراوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 26-27.
- (4) - نفسه، ص: 32.
- (5) - وإذا وقفنا على معناها اللغوي، فمعلوم أنها مأخوذة من الجذر اللغوي (د،و،ل). وجاء في لسان العرب "حدثني بحديث سمعته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يتداوله بينك وبينه الرجال أي لم يتناقله الرجال (...) اللهم أدلني على فلان وانصريني عليه. ندال عليهم ويدالون علينا؛ الإدالة: الغلبة... يقال أدل لنا على أعدائنا أي نصرنا عليهم (...) ندال عليه ويدال علينا أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى (...) ويقال: تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاوناه فعمل هذا مرة وهذا

مرة". وإذا أمعنا النظر في المعاني التي يقدمها هذا الجدر اللغوي ألفينها تتخذ المعنى الدال على التناقل والتحول، وعدم الاستقرار على حال معين، وأيضاً المشاركة والمبادلة؛ مما يعني أنها تحيل على طرفين أو أكثر. فالتداول مثلاً يشي بأن هنالك طرفان يتبادلان أطراف الحديث بغية تحقيق هدف ما. ويقال: دل فلان علان على شيء؛ بمعنى أحاله عليه. ومن هنا، يتضح أن الطرفين تبادلا أطراف الحديث من أجل غاية مقصودة يحددها مقام التخاطب.

- (6) - ما التداوليات، عبد السلام إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 23.
- (7) - باديس لهوعل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، ع7، 2010، ص: 158.
- (8) - نفسه، ص: 18.
- (9) - نفسه، ص: 19.
- (10) - باديس لهوعل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، ص: 158.
- (11) - باديس لهوعل، التداولية والبلاغة العربية، ص: 158.
- (12) - نفسه، ص: 158.
- (13) - في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، مسعود صحراوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 32.
- (14) - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2014، ص: 27.
- (15) - التداوليات وتحليل الخطاب، تقدم حافظ إسماعيلي علوي ومنتصر أمين عبد الرحيم، ص: 162.
- (16) - نشير هنا إلى ما ذهب إليه كل من حمادي صمود في كتابه: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 2010. ومحمد العمري في كتابه: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط3، 2010.
- (17) - أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981 ص: 23.
- (18) - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط1، 1968، ص: 75.
- (19) - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، 2007، ص: 212.
- (20) - عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة، دار الهيثم، القاهرة، ط1، 2005، ص: 488.
- (21) - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، ط6، بيروت، ص: 31.

- (22) - نقلا عن: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص: 4.
- (23) - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 2010، ص: 45.
- (24) - نشير هنا إلى ما أورده صاحب أساس البلاغة إذ قال: "بلغ. أبلغه سلامي وبلغه. وبلغت ببلاغ الله: يتبليغه (...). وبلغ الله به فهو مبلغ به. (...) وأبلغت إلى فلان: فعلت به ما بلغ به الأذى والمكروه البليغ. (...) وتبلغ في كلامه: تعاطى البلاغة وليس من أهلها، وما هو بليغ ولكن يتبألغ" (محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، 1989، ص: 49-50) يتضح من خلال هذا التعريف أن جذر «ب،ل،غ» يؤدي معنى الإيصال والإبلاغ، مما يعني، أنه يستلزم طرفين على الأقل لحدوثه، فقوله مثلا: "أبلغه سلامي وبلغه"؛ معنى ذلك أن هناك طرفان يتبادلان السلام (مرسل تحية السلام ومستقبلها).
- (25) - يرجح الأستاذ طه عبد الرحمان هذا الطرح في سياق تشخيصه لمفهوم التداولية من الزاوية اللغوية والاصطلاحية بقوله «أما عن المعنى الاصطلاحي الذي نستعملها فيه، فقد أردنا أن يكون موصوفاً بهذا المدلول اللغوي وصلاً، لأن هذا الوصل هو الذي يجعل أوصافها إجرائية مألوفة ومقبولة، وينقل إليها الإنتاجية الموروثة والمبثوثة في هذا المعنى الأصلي. وعلى هذا، فالتداول، عندنا (...) هو وصف لكل ما كان مظهراً من مظاهر التواصل والتفاعل (...)، وهو وصف لكل ما كان نطاقاً مكانياً وزمانياً لحصول التواصل والتفاعل». (طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، ص: 244).
- (26) - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، ط1 1987، ص: 36.
- (27) - نفسه، ص: 49.
- (28) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة، مصر، 2002 ص: 12.
- (29) - نقلا عن: منال النجار، مفهوم البراغمية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 80.
- (30) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، 1978، ص: 43.
- (31) - نفسه، ص: 44.

- (32) - ترجح فرانسواز أرمينكو هذا الطرح بقولها: "من هنا يسمح المفهوم الموحد للسياق بنمو تداولية محضة، يكون موضوعها معالجة ما يعود في اللغات الطبيعية إلى الشروط العامة للتواصل". المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص: 49.
- (33) - متضمنات القول Les Implisites "مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره". (في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، مسعود صحراوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 43).
- (34) - علي الجارم و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع، دار الفكر، بيروت 2010، ص: 104-105.
- (35) - عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 39.
- (36) - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة، مصر، 2002 ص: 14.
- (37) - نفسه، ص: 33.
- (38) - جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص: 231، بتصرف.
- (39) - العياشي أدراوي، الاستلزام الحوار في التداول اللساني، ص: 20.
- (40) - نفسه، الصفحة نفسها.
- (41) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، 1978، ص: 52، بتصرف.
- (42) - جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني إفريقيا الشرق، 1991.
- (43) - العياشي أدراوي، الاستلزام الحوار في التداول اللساني، ص: 82.
- (44) - يمكن أن نشير هنا إلى أن سورل، في إطار تطويره للموروث الإستمولوجي الذي خلفه أستاذه أوستين وخاصة نظرية الأفعال الكلامية، قسّم الأفعال اللغوية الإنجازية إلى أفعال إنجازية مباشرة وغير مباشرة. "فالأفعال الإنجازية المباشرة عنده هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فيكون معنى ما ينطقه مطابقاً مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن يقول وهو يتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع السامع أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معاً. أما الأفعال غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فالفعل الإنجازي يؤدي على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر"

(آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، أحمد محمود نحلة، ص 70-71). وفي تقديرنا أن فحوى هذا الكلام كله أفاض فيه البلاغيون في سياق الحديث عن المعاني غير المباشرة التي تؤديها صيغ الإنشاء الطلبي، إذ أقرّوا على أن المتكلم يستعمل أفعال إنشائية طلبية ويقصد بها غير الذي تدل عليه في أصله اللغوي (خروج الأساليب الإنشائية الطلبية عن مقتضى الظاهر).

(45) - يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1987، ص: 168-169.

(46) - وفي سياق الحديث عن حضور مفهوم الملاءمة في الدرس البلاغي نستحضر ههنا ما ورد عند ابن رشيق القيرواني من أن بشر بن المعتمر ذكر في صحيفته خاصة في موطن حديثه عن مظان الكلام بأن "المعنى ليس بشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة .. و إنما مدار الشرف مع الصواب واحتراز المنفعة ومع موافقة الحال مع ما يجب لكل مقام من المقال" (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح عبد الحميد هنداي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، ص: 191). وعليه، تكون البلاغة اهتمت بالمقام التخاطبي، حيث حصرت شرف المعنى في إحراز المنفعة أولاً، ومطابقة المقال لمقتضى الحال ثانياً.

(47) - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 29.

(48) - محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، دققه عباس عبد الساتر وراجعته نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص: 129، بتصرف.

(49) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 203.

(50) - نفسه، ص: 159.

(51) - في هذا السياق نود الإشارة إلى جملة من الدراسات التي ذهبت إلى أن اللسانيات التداولية لها أصول في البلاغة العربية القديمة. نورد هنا على النحو الآتي:

- يقول محمد العمري في هذا السياق: "ومن ثم تصبح البلاغة سلطة أمام النص، وتوقع الشعري في شرك الوظيفة، الخطابية، أي الإقناع في كل حالة بالوسائل الاحتمالية المتاحة. ومن هنا يكون الحديث عن المرسل حديثاً عن المتلقي في نفس الوقت، أو هو في الحالتين مظهر لشيء واحد. (...) إن هذا البعد هو أحد الأبعاد «الأساسية» في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في أساسه. (...) وتحظى نظرية التأثير والمقال حالياً بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى «البلاغة» العربية تحت عنوان: التداولية". (محمد العمري البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 287).

- يقول تمام حسان: "لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة «المقام» متقدمين ألف سنة تقريبا على زمنهم لأن الاعتراف بفكرتي «المقام» و«المقال» باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة". (تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2001، ص337).

- يقول عبد القادر قينيني في مقدمة كتاب أوستين: "ونخلص إلى أن أوستين يوصل تقاليد التفكير البلاغي الخطابي الإغريقي، كما هو واضح الأثر على التفكير البلاغي العربي". (جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني إفريقيا الشرق، 1991، ص9).

- يقول محمد سويرتي: "التفت عبد القاهر إلى ما عرف في التداولية الغربية بالملاءمة". "ينتمي السكاكي إلى ما عرف اليوم في الغرب بالمجال التداولي الحدائي الغربي". (محمد سويرتي، النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم تقريب توليدي وأسلوب وتداولي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص218-220).